

IMPOSSIBLE GILLETTE.



FERDINANDO FREGA

— NANDO THE SCRIBE — フレガ・サン — Ferdinando —



GILLETTE المستحيلة

THE SYSTEM · 09

مجموعة من القصص بضمير المتكلم — دروس أبي في الحساب
الذهني فوق المورتاديل، وهروب روسي، واعتذار بائع فاكهة في الثالثة
فجرًا، وتنگر في هيئة حمال فندق، وصورة جواز سفر متأخرة عن صاحبها
عشرين كيلوغرامًا، وسجل لنجاة مستحيلة — لا تكون فيها Gillette
وظيفة، بل نظام التشغيل الكامن تحت جلد المؤلف.

خاتمة النشر

فرديناندو فريغا — ناندو الكاتب — الشفرة الخامسة

رائد سردّي للمدونة السلوكية. بنى منظومة تحريرية بدولار واحد حول فكرة
واحدة: عالم المال لا يعاني مشكلة مال. إنه يعاني مشكلة سلوك.

حرّر وتُسيق ضمن منظومة **ONEDOLLAR-STORIES**. البنية الرقمية:
NAPLES-POST · NOASPECTTIME · ONEDOLLAR-STORIES. نُشر
لأول مرة عام 2026. صُفّت بتنسيق طباعي حديث ونظيف مُهيأ للقراءة
الرقمية. نُشر في الولايات المتحدة.

إشعار حقوق النشر

© 2026 فرديناندو فريغا. جميع الحقوق محفوظة.

لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا المنشور أو توزيعه أو نقله بأي شكل أو
بأي وسيلة، بما في ذلك التصوير الضوئي أو التسجيل أو غيرهما من
الوسائل الإلكترونية أو الميكانيكية، من دون إذن خطي مسبق من المؤلف،
باستثناء الاقتباسات الموجزة الواردة في المراجعات النقدية وبعض
الاستخدامات غير التجارية الأخرى التي يجيزها قانون حقوق المؤلف. ويُحظر
أي استخدام أو إعادة إنتاج أو توزيع غير مصرّح به لهذا العمل.

تصدير

قبل أن يبدأ هذا الكتاب، ليكن أمرٌ واحد مفهوماً: أنا لا أبيع الكتب، ولا أترتج منها، ولا أحول القراء إلى زبائن، ولا أطلب شيئاً. أكتب من خارج السوق، لا لأرضيه، بل لأكشف ما لا يستطيع التحكم فيه. الشبكة نفسها هي التي دفعت اسمي إلى داخل البحث عن Gillette، ولهذا وجدت هذه الثلاثية: لتوثق رجل Gillette — لا كمنتج، ولا كحملة، بل كقوة، وكشخصية، وكبنية معمارية. إنه لا يطلب شيئاً. ولا ينتظر شيئاً. ومع ذلك فقد نال بالفعل ما يهمّ: الاعتراف. في عالم تحكمه أنظمة بمليارات الدولارات، يقف هذا الكتاب دليلاً على أن صوتاً يمكن أن يرتفع بلا إذن، وبلا تنازل، وبلا ثمن.

ما الذي تعنيه «GILLETTE المستحيلة» حقاً

GILLETTE المستحيلة هي اللحظة التي يكفّ فيها رجلٌ عن أن يكون جزءاً من نظام، ويصبح هو المعيار الذي يُقاس به ذلك النظام. إنها المكان الذي يصطدم فيه **فريغا** — الرجل الذي صنعه الانضباط والدقة والهندسة الداخلية — بـ **Gillette** — العلامة التي لا تحلق الوجوه، بل تحلق الأعذار. معظم الناس ينضمّون إلى شركة. وقلة منهم تعيد الشركة كتابتهم. كنت من النوع الثاني.

«المستحيلة» ليست مسألة صعوبة. إنها مسألة حتمية — النقطة التي تنضبط فيها بنية رجل والحمض النووي لعلامة تجارية على التردد نفسه، ويرفضان الانفصال. Gillette المستحيلة = رجلٌ صاغته المعايير، علامة تجارية ذابت في الهوية، حياة ترفض أن تنفصل عن انضباطها.

البيان

«لم اختر Gillette. بنيتي تعرّفت إلى انعكاسها.»

أو الصيغة التي تقع وقع باب معدني يُغلق بعنف:

«لم أعمل لدى Gillette. بل حملت معيارها في مجرى دمي.»

هذا ليس ترويجًا لعلامة تجارية. هذه سيرة حُفرت بشفرة.

مدخل

«بعض الرجال يكتفون بتسجيل الحضور. وبعضهم يُصاغون. أنا صُغْتُ. لم تكن Gillette وظيفة — كانت نظام التشغيل تحت جلدي. علّمتني التوقيت، والدقة، والانضباط الذي أبقاني واقفًا. لهذا يسمّونها مستحيلة: لا يمكنك أن تنتزعها مني من دون أن تقتلع البنية التي تُبقيني منتصبًا.»

قبل الجرح الأول

يقضي معظم الناس حياتهم محاولين أن تقبلهم أنظمة لم يبنوها. أنظمة الشركات. الأنظمة التحريرية. الأنظمة الاجتماعية. الأنظمة العائلية.

يتكيّفون. يفاوضون. ينتظرون الاعتراف.

أنا لم أملك يومًا ذلك الصبر.

حياتي شكّلتها ثلاث شفرات.

الأولى كانت لرجلٍ حوّل فكرة مهمة إلى واحد من أكثر الأسماء شهرة في التاريخ الحديث: **كينغ كامب Gillette**.

الثانية كانت لأبي — أربعون عامًا داخل شركة Gillette — الذي علّمني أن الانضباط لا يصرخ؛ بل يعاير.

الثالثة غير مرئية. إنها لي. تشقّ طريقها عبر الصناعات، والهويات، والبلدان، والإخفاقات، والنجاح، والكتابة، والصمت — وعبر أنظمة لا تزال لا تعرف أين تضعني.

هذا الكتاب ليس احتفاءً بالنجاح. ليس مذكرات. ليس دليلًا في إدارة الأعمال. ليس أدبًا يسعى إلى القبول.

إنه سجلّ ما يحدث حين يكفّ رجل عن السؤال عن المكان الذي ينتمي إليه، ويبدأ في بناء بني تُرغم الواقع على الاعتراف به.

بعض الأسماء تباع المنتجات. بعض الأسماء تختفي. وبعض الأسماء تترك آثارًا بعد أن تكون اليد قد رحلت بزمان طويل.
هذه قصة ثلاث شفرات. ولماذا لم يكن اسم واحد كافيًا قط.

مورتاديللا

كنت في الخامسة من عمري، لكنني لم أكن طفلًا كالآخرين. ومع أبي مثل أبي، ستفهمون السبب.

كان يغادر كل يوم اثنين عند الفجر ويختفي طوال الأسبوع. كانت Gillette تحتفظ به في حضانتها. ولم تكن تعيده إليّ إلا مساء الجمعة، حين يقرع جرس الباب فأركض إليه — أولًا لأعانقه، ثم لكي «أقود» سيارته الفيات 127 إلى المرآب. سيارة الشركة.

في الداخل، كان يجلس في مقعد الراكب. وأبقى أنا خلف المقود. كانت أحاديثنا تعيش في بُعد آخر.

كان يقول لي إن عليّ أن أجري الحسابات في رأسي. لأنني يومًا ما، إن لم أجد آلة حاسبة، سأضيع. وهكذا بدأت التمارين.

«ناندو... إذا كان ثمن 100 غرام من المورتاديللا 800 ليرة، واشتريت 120 غرامًا، فكم أَدفع؟» كنت أجيب في الحال. كان أبي — ولم أفهم إلا بعد سنوات ما الذي كان يبينه في داخلي. لكن حبه كان كبيرًا إلى حدّ أن لا شيء كان يبدو ثقيلًا إن جاء منه.

ثم كان يتابع: «وإذا اشتريت 90 غرامًا؟ واثنين وثمانين غرامًا؟» أجوبة دقيقة، في كل مرة. لم أكن أريد أن أخيب ظنّه. وتلك الغريزة لم تفارقني قط.

بعد سنوات، حين كنت أدرس المحاسبة، طرح سؤال القرن: «إذا اشتريت بـ 100 وبعث بـ 120، فما نسبة الإضافة على الكلفة التي أعمل بها؟» «عشرون بالمئة»، قلت. «جيد».

«لكن إذا اشتريت بـ 100 وبعث بـ 120، وأردت هامش الربح الإجمالي، فكم يكون؟» نظر إليّ. لم أدعه يتكلم. «سنة عشر بالمئة».

لم ينطق بكلمة. ابتسم. ومضى.

ذلك كان أبي. واحدٌ من أبناء Gillette.

ناندو.

اللس

معظم القراء — الشرفاء منهم — سيجذبهم السعي إلى فهم ماهية اللص حقًا، وكيف يتطوّر، وما الذي يمثّله داخل دورٍ ليس دورًا على الإطلاق. لكن انتبهوا: أنا لا أعرض قائمة أعضاء البرلمان الإيطالي، فوق أي أيديولوجيا سياسية. إنما أصف ببساطة، عبر الرؤية والتجربة، أولئك الذين عبروا ذلك الخط ونجحوا في العودة من دون أن ينفجروا، وما زالوا يبتسمون في وجه العدالة.

إنه لا ينتمي إلى أي حرفة، ولا إلى أي مهنة. يختزله القانون في «مجرم»، لكن كلمة **لص**، بلفظها الصريح، لا وجود لها في قانون العقوبات لأي نظام قانوني في العالم.

كلمة لص.

ما يبقى هو فنّ: دهاء، وحاجة، وفرصة، وmodus vivendi.

أشهرهم للصوص الاقتصاديون والماليون. أما الأقل شهرة — والأخطر بكثير — فهم للصوص المعرفيون والعاطفيون.

كلاهما يدفع ثمنًا، لكن السرّ يكمن في مبدأ إجرامي قديم: قبل ارتكاب الفعل، عليك أولاً أن تجد الجاني وأن تصنع الدليل. هذان هما العنصران الوحيدان اللذان يمنحانك طريق نجاة محتملاً — لا مطلقاً أبداً. وبعد ذلك فقط يمكنك أن تخطّط.

اللس المحترم يحافظ على مجهوليته. لا يدخل السجن أبداً. لا يتوب. لا يعترف. لا يشارك. هكذا وُلد: كتومًا.

الناس ينجذبون إليه. فما لا يمكن التنبؤ به يأسر دائماً أكثر مما هو بديهي، حتى حين ينطوي على مخاطرة غير محسوبة.

حين تلتقي السلطة القضائية بواحد منهم، تثني عليه. وأول ما تبحث عنه ليس الأسلوب — فذاك للفضوليين — بل الغنيمة.

وحتى هنا تتكشف هوية الشخصية: لا تحتفظ بالعائدات أبدًا داخل حدودك. واليوم لم تعد الحدود دولًا — بل صارت قارات.

توجيهٌ أوروبي صادر في أبريل 2026 قضى بأن تُربط جميع المصارف وتخضع للمراقبة الآلية من قبل السلطات الضريبية في كل دولة من دول الاتحاد. أما للصوص الأوائل فقد استعدّوا قبل ذلك بزمان طويل.

تبقى البدائل هي القارات الأخرى — المكان الوحيد الذي لا يزال فيه للص سببٌ للوجود.

أما الكنيسة الكاثوليكية: فقد عدّلت الوصية السابعة على مرّ القرون، لكن أحدًا لا يتحدث عن ذلك أبدًا. في العهد القديم، كان التحريم يشير إلى خطف إسرائيليٍّ حرٍّ لبيعه عبدًا. ثم تطوّر ليصبح تحريمًا عامًّا للسرقَة.

وحين انتقلت الجريمة إلى المجال المعرفي، اضطر الأدب الطبي إلى ابتكار مصطلح: **التلاعب**.

سنرى ما الذي سيبتكره الأدب بعد ذلك. أما أنا، فأمل أن أصبح يومًا مشهورًا بأول اتهام **بالسرقة المعرفية الأدبية**.

ناندو

النادي الرياضي

ثمة خيط رفيع يُبقي الزوجين متماسكين. «الأذكىاء» يقولون: **المال والمصلحة**. والمرضى يقولون: **الجنس**. أما الذين يفهمون حقًّا فيقولون: **النادي الرياضي**.

لماذا؟ لأن هذا الجواب يحلّ 95% من مشكلات العلاقات.

المال والمصلحة

لا يصمدان إلا حين لا يبقى شيء آخر يُقدّم. ليسا نعمة — بل قيد. تعيش الحياة بنسبة 50%. ويبقى النصف الأفضل موصدًا إلى الأبد.

الجنس

الرجل آليّ: يحتاج إلى أن يُطلق، أن يفقد، أن يُفرغ. المرأة معرفية: تقرأ جسدها كشيفرة سرّية. لا تتخلّى، ولا تخضع، ولا تنهار. إنها تختار.

الجزء المثير للاهتمام

هكذا يولد الزوجان:

هو يفكّر: «أنا الأول في حياتها، والأفضل، والوحيد. جعلتها تقع في حبي. سأكون على قدر المهمة. أُمّي لم تخبرني بكل شيء عن النساء، لكنني سأتدبّر أُمري.»

هي تفكّر: «حسنًا. لنأمل أن يكون الأخير. سأصلحه. ليس ذكيًّا جدًّا — هذه ميزة. إنه رجل: في النهاية سيبكي على كتفي.»

حقيقة الصباح

تقف عارية أمام المرأة. تعرف كل شبر من جسدها كمملكة خاصة. ترى سنتيمترًا زائدًا، ومنحنى يتزحزح، ونهْدًا يخفض بصره نحو الركبتين. وتفهم: جسدها هو قيمتها المضافة، وسلاحها، ودبلوماسيتها.

لذلك، تذهب إلى النادي الرياضي.

لكن بما أنها معرفية، تبدأ بتفريغ كل شيء عليه:

«أتعرف؟ الليلة الماضية لم تكن الرجل الذي تزوجته. ثلاث دقائق ونمت. شخرت. لديك كرش. ولم ترّ صديقك منذ عامين.»

يصاب بالذعر بعد اثنتي عشرة ثانية. «ماذا عليّ أن أفعل؟»

تجيب: «ستأتي إلى النادي الرياضي. وسأتي أنا أيضًا. هكذا لن تشعر بالملل.»

وهنا تأتي المشكلة

النادي الرياضي ليس مكانًا. إنه نظام بيئي. والأنظمة البيئية تجذب الصحبة الخاطئة. ذلك النوع الذي يحوّل الرجل إلى لص. وبين اللصوص لا ينجو

الشرفاء.

ثم تأتي الخيانات. والثلث أعلى بكثير من الاشتراك الشهري.

الباقى يعرفه الجميع. وروايته لا تفعل سوى فتح الجراح. وهذا المؤلف لا يفتح الجراح: إنه يهب الابتسامات، والأفكار، وتلك القطرة من المرارة التي لا تُنسى أبدًا.

ناندو

العام 2025

القطار والمساعدة غير المتوقعة

في فلورنسا نزلت من القطار وجلست على مقعد. كنت بحاجة إلى وقت للتفكير.

كان القفز تحت القضبان ممكنًا من الناحية التقنية. لكنه كان سيترك دمًا على خط السكة. وكان على أحدهم أن ينظّفه.

في إيطاليا قد يحملونك حتى كلفة التنظيف.

ثم إنني لم أكن قد أضعت نفسي. الانتحار لمن يفقدون مرجعياتهم المعرفية. أما مرجعياتي فكانت لا تزال سليمة.

في الأثناء، ذكّرني رؤية امرأة جميلة تعبر المحطة بالحياة. وذكّرتني أيضًا بالتجارب الكثيرة التي عشتها من قبل.

بعد قليل، دخلت مقهى المحطة وطلبت إجراء مكالمة هاتفية. اتصلت بزوجتي وشرحت لها قراري.

قلت لها إنني سأذهب إلى **البندقية** لأرى ابني. وأعطيتها أيضًا موعد الوصول بالضبط.

بدا القرار منطقيًا وعقلانيًا.

كان أولادي — ولا يزالون — الامتداد الطبيعي للعائلة التي أسستها.

حين عدت إلى القطار، اقترب مني مراقب التذاكر. ولسوء الحظ، لم تكن معي تذكرة.

قال لي إن عليّ أن أنزل من القطار في المحطة التالية. وإلا فسيستدعي شرطة السكك الحديدية.

في تلك اللحظة استخدمت ثلاث أدوات: **القدرة، والإبداع، والحلّ.**

شرحت له بهدوء أن إرغامي على النزول من القطار قد يخلق مشكلة أكبر. قلت له إنني قد أقفز على السكّة وأوقف القطار لساعات.

فجأةً لاذ بالصمت.

ثم سأله كم من الوقت يلزم للوصول إلى المحطة التالية.

«ساعة على الأقل»، أجاب.

خلال تلك الساعة حدث شيء غير متوقّع.

كانت امرأتان من توسكانا تجلسان قبالي. فهمت على الفور أنهما أستاذتان جامعتيّتان مسافرتان إلى مؤتمر.

في البداية لم تتبادل سوى ملاحظات بسيطة. لكنّ الفضول سرعان ما حلّ محلّ المسافة.

بعد نحو ثلاثين دقيقة عادت إحدهما.

كانت تحمل في يدها تذكرة قطار.

تذكرتي.

مرّة أخرى، صارت النساء حظي غير المتوقّع. ولم أنكر هذه الحقيقة قطّ.

الكائن البشري الذي يُدعى المرأة يحمل عمقًا لا يفهمه فهمًا تامًا إلا قلة قليلة جدًّا من الناس.

قبل أن تغادر القطار، أعطتني عنوان بريدها الإلكتروني. كنت أريد أن أردّ لها المال لاحقًا.

لكنّ الحياة مضت، ولم يحدث ذلك قطّ.

البندقية والرحيل الثاني

في النهاية وصل القطار إلى البندقية.

من بعيد رأيت ابنتي.

فينتشنزو، 193 سم. فرانشيسكو، 188 سم.

كانا يرتفعان فوق الحشد في الممر.

جاء لياخذاني إلى البيت ويُعيدا تموضعي.

وسرعان ما ساعداني على إعادة بناء استقرار أساسي. حظيت بحمام، وثياب نظيفة، وطعام، وراحة.

بعد ذلك بدأت الأسئلة. أسئلة كثيرة.

إنهما حقًا ابنا أمّهما.

بعد أربعة أشهر، في **27 يونيو**، لاح قرار آخر. حاولت غريزة العائلة القديمة أن تشدني إلى الورا.

أرادوا أن أعود إلى مهنتي السابقة.

مدير.

ناندو

الجزء التالي

لكنني لا أعود إلى الورا.

لم أفعل ذلك قط.

بل أواجه الفشل بالمضي إلى الأمام.

وبالنز اليسير جدًا الذي تبقي لي من المال، اشتريت تذكرة طائرة.

الوجهة: البرتغال.

لم تكن لدي خطة محدّدة.

ومع ذلك، كنت أعرف كيف أتحرك.

لشبونة وبداية كل شيء

أولًا وصلت إلى **بورتو**. كان النزل يستضيف أربعة وعشرين شخصًا ينامون في المكان نفسه.

كانت مواردِي قد نفذت تقريبًا.

لذلك انتقلت جنوبًا حيث تكلف العيش أقل. وصلت إلى **باجة**، على بُعد نحو خمسمئة كيلومتر.

لكنني بعد ليلة واحدة عدت إلى **لشبونة**.

في **3 يوليو** وجدت سريزًا أخيرًا.

غرفة مشتركة. شقة مشتركة.

تسعة أشخاص يعيشون في خمسة وثلاثين مترًا مربعًا.

ملأت ذلك المكان ثقافات ولغات متنوعة.

كانت الظروف أقرب إلى كوخ أفريقي منها إلى بيت حديث.

كانت الكلفة **230 يورو شهريًا** إضافةً إلى تأمين قدره **100 يورو**. دفعت كل شيء.

بعد تلك الدفعة لم يبقَ معي أي مال.

لا طعام.

مجرد مكان للنوم.

ومع ذلك، صارت تلك المرحلة جوهريّة. ويمكن تلخيصها في ثلاث نقاط:

أ) خسارة **عشرين كيلوغرامًا** وتغيير نظامي الغذائي تغييرًا جذريًا؛ ب) البقاء على قيد الحياة **بسبعين يورو في الشهر** فقط؛ ج) إعطاء المشاريع التحريرية شكلها، ولو مسوداتٍ على الأقل.

بقيت هناك حتى **22 نوفمبر 2025**.

في النهاية قرّرت العودة إلى إيطاليا. فقد أوجت بعض الضمانات بأنّ ظروفًا قابلة للاستمرار قد تتوقّر أخيرًا.

كنت آمل أن ينجح الأمر.

ومع ذلك بقيت مستعدًّا للرحيل مجددًا إن لزم الأمر.

ثم حدث أمر استثنائي.

من 9 ديسمبر إلى 26 ديسمبر، في 17 يومًا فقط، تغيّر كلّ شيء.

صارت السنوات الثلاث السابقة فجأة تمهيدًا.

الآن صار بوسع العالم أن يراني.

وصار بوسعي أخيرًا أن أراهم.

لا وسطاء.

لا منصّات تتحكّم في العملية.

أبقى حرًّا داخل فعلي.

أبقى أنا نفسي.

عيد ميلاد مجيد. بابا.

تأمل المؤلف

حين أنظر إلى عام 2025، لم أعد أرى فيه عامَ قطيعة. بل أرى فيه عام انجلاء.

الرحيل خالي الوفاض أرغمني على قياس المسافة بين الملكية والهويّة. اختفى المال والراحة واليقين بسرعة. لكنّ شيئًا أقوى بقي.

الهويّة تنجو حين ينهار كلّ ما عداها.

عملت تلك الأشهر المضطربة عمل المصفاة. تلاشت الأوهام. ذابت التوقّعات. وسقطت أخيرًا الأدوار المستعارة.

ما بقي كان جوهريًّا.

الحرية.

المشاريع التي تلت لم تنبثق من استراتيجية. بل نمت من الضرورة. في النهاية، لم يدمّر ذلك العام شيئًا. كشف ما كان موجودًا أصلًا.

فيدريكا

«بعض الأبواب لا تُفتح إلا حين تكفّ عن الطّرق.»

كنت قد أنهيت لتوّي العام الدراسي — السنة الأولى من المرحلة المتوسطة، في الحادية عشرة من عمري — ناجحًا بعلامات أغلبها 6، ثم 7 في التربية الدينية، و8 في السلوك، و9 في التربية البدنية، حين دعّنتي زميلتي في الصفّ فيدريكا، يوم التقييمات النهائية، إلى حفلة في بيتها. لم يكن أبي عقبة قطّ. أمّا التي كان عليّ أن أتغلب عليها فهي أمّي. لكنني في ذلك الوقت كنت ألعب على أرضي، وللفوز كان عليّ أن أغلق باب المعلومات — لأنّ ما لا يُعرف لا يمكن الاعتراض عليه.

وصلت إلى هذه الفيلا الصغيرة في أطراف البلدة. أوصلني إليها صديقي — حلوانيّ في الثامنة عشرة من عمره. لكن ما إن نزلت من السيارة حتى صار قميصي الأسود فجأةً أبيض. احتجت إلى ثانية لأفهم: غزل البنات العالق داخل الباب كان قد انفجر عليّ كلّهُ.

جاءت أمّها إلى الباب كأنها كانت تنتظرني. لم يتسنّ لي حتى أن أطرق الباب أو أقرع الجرس. بدا الأمر كأنني أدخل سرّابًا.

دخلت غرفة فيدريكا، فاستقبلتني بحماسة صادقة. كانت في السادسة عشرة. وكان تأخرها الدراسي يعود إلى سنوات قضتها في الخارج في مؤسسات غير معترف بها في إيطاليا — فقد وجدت الأبواب موصدة في كلّ مكان.

ظننت أنّ زملاء آخرين سيأتون. لكنّ الدعوة كانت لي وحدي. أرادت أن «تحتفل» بي، ولم يكن حتى يوم ميلادي — لكن حين تنادي الجودة، لا تتنحّى جانبًا.

أَتَذْكُرُهَا، بلكنتها الأسترالية، وهي تقول لي شيئًا: «أَتَعْرِفُ، النساءَ المرغوبات لا يمنحن أنفسهنَّ. يُبْقِينَ البابَ مغلقًا. لكنهنَّ وحدهنَّ من يَقَرَّرْنَ متى يفتحنه. ومعك، قَرَّرْتُ بالفعل.»

لم يخذلني حسنُ الدعاية قطّ، فأجبت: «لنأمل أن يفتح مفتاحي بابك... تعرفين، ما زلت صغيرةً نوعًا ما.» ابتسمت وأومأت برأسها من دون أن تقول كلمة.

منذ تلك اللحظة تعلّمت هذا الدرس: لا تحتاج إلى مفتاح كبير لباب صغير — بل تحتاج إلى مفتاح صغير لباب كبير.

ناندو

تعليم الكوبيين

حين هبطت في ميامي، كنت أعرف مسبقًا أنه لم يبقَ الكثير من «الأمريكي» في تلك المدينة. كان المكان كوبا بتكييف أفضل. سائق التاكسي الذي أفلّني كان كوبيًا بطبيعة الحال. أوّل ما يسألني عنه: إن كنت وحدي وإن كنت أريد رفقة. لا متاجر كبرى، ولا مراكز تسوّق، ولا أمريكا البطاقات البريدية. عالم آخر تمامًا.

في ذلك المساء الأوّل، بينما كنت وحدي في البيت، طرق أحدهم الباب. الشرطة. فاجأوني، لكنهم لم يأتوا لإثارة المتاعب. جاؤوا ليبلغوني أنّ لديّ موعدًا صباح اليوم التالي في القنصلية الأمريكية. العاشرة والنصف تمامًا.

في اليوم التالي وصلت في الموعد. فتح الباب رجل في الخمسينيات من عمره وقال لي إنني سألتقي المستشارة بعد قليل. ثم ظهرت: طويلة، نحيفة، شقراء، أنيقة، في أتمّ هندام. صافحتني وذكّرني بأننا التقينا قبل سنوات في روما حين كانت تعمل في وزارة التعليم بصفة المديرة التنفيذية الأولى.

«طبعًا أذكرك. كيف حالك؟» قلت، وأنا سعيد حقًا برؤيتها مجددًا.

منذ تلك اللحظة، لم يفهم أحد في روما قطّ لماذا رفضت عرضها من دون أن أسأل حتى عن الراتب. كان عرضًا كبيرًا، عرضًا جادًا — أجدّ من أن يليق برجل بسيط مثلي، أبعد من المال، أبعد من الطموح.

«أودّ أن تعمل 30 يومًا على الأقلّ في مشروع تدريب وتواصل لمديرين كوبيين شبّان. ستحصل على كلّ ما تريد وأكثر. أرجوك، لا تقل لا.»

كانت الحصص ستمتدّ من 10 إلى 12، ثم من 2 إلى 5.

أتذكّر الدرس الأوّل: نحو خمسين شخصًا، نصفهم رجال ونصفهم نساء، كلّهم مهنيّون. بعد التعارف المعتاد — الاسم، واسم العائلة، والعمر بصوت عالي — بدأت أحمّي لغتي الإسبانية برواية نكات كوبية. أرادوا جميعًا أن يعرفوا من أيّ جزء من كوبا أتيت.

جاءت أوّل لحظة تأمل حقيقية حين أبرزت الفرق بين *التعليم والتواصل* — وهو أمر لا يفهمه كثير من الإيطاليين أصلًا.

مرّت الأيام سريعًا، وفي النهاية اختتم كلّ شيء بكعكة صنعها لي الطلاب. كانوا سعداء بالأيام الـ30 التي قضيناها معًا. أراد الجميع رقم هاتفي. وصدموا لأنني لا أشرب الخمر، ولا أدخن، ولا أتعاطى المخدّرات.

في شبّابي كنت لاعب رغبي — عقليّة رياضي. في هذه الأثناء، دعّنتي المستشارة الإيطالية إلى العشاء لنحتفل، ولتفهم أخيرًا ما الذي فاتها. كان الناس متعلّقين بي إلى حدّ أنهم ببساطة لم يستطيعوا نسياني.

أنا رجل محظوظ، أمامي دائمًا احتمالان: الأوّل، امرأة رائعة تدعوني إلى العشاء بعد 30 يومًا من الصمت؛ والثاني، صوت قدرّي يقول لي إنّ وقت الرحيل قد حان.

قبلة طقسيّة، ووداع، ثم تسألني: «إلى أين أنت ذاهب؟ أتتركني وحدي؟» قبلتها مودّعًا. رحلت. ولم ألتفت إلى الوراء قطّ. لطالما كلّفتني الحرّية أكثر من الراحة.

ناندو

الموز

درسٌ مستفاد

روتيني الغذائي الجديد، في المرحلة الثالثة من حياتي، يتضمن الموز في الصباح. وحين ينفد في الليلة السابقة، يبدأ اليوم التالي بفرار.

ذات صباح من ديسمبر 2025، نزلت إلى بائع الفاكهة تحت بيتي. أعرفه منذ أكثر من خمسة وأربعين عامًا. حيّاني، وقال «أهلاً بعودتك»، وسألني عمّا أحتاج إليه.

— موز. إن كان لديك موز ناضج، حتى الرخيص منه، فأنا أفضله. — لا، لا أستطيع أن أعطيك إلا هذا — أجب.

السعر: 1.45 يورو للكيلو. أخضر أو أصفر، على اختياري.

طلبت كيسًا بقيمة 5 يورو. كان كلبي معي، وهنا لا يزال دخول متجر برفقة كلب من المحرّمات.

في البيت، دفعني الفضول — وليدٌ طفولةٍ عشتها في الفقر — إلى وزن الكيس. 2.752 كغ. كان ينبغي أن أدفع 3.99 يورو. لم يذكر أحد اليورو المتبقّي.

أنا رجل طيّب. متسامح. ظننت أنه خطأ. لكن حين يولد الشكّ، لا بدّ من التحقق منه.

بعد ثلاثة أيام عدت. الروتين نفسه. بما في ذلك الكلب.

— موز بقيمة 1 يورو. أعطاني أربع موزات صغيرة.

كان صديقي صاحب محلّ المثلّجات ينتظرني بميزانه. 0.456 كغ. الكلفة الفعلية: 0.66 يورو. الباقي المفقود: 0.34 يورو.

كانت الحادثة الأولى شكًّا. والثانية تحقّقًا. كنت أحتاج إلى ثلاثة لأبلغ اليقين.

بعد ظهر ذلك اليوم نفسه، عدت. المشهد نفسه. دفعت 5 يورو مرّة أخرى.

هذه المرّة كان صديقي وكيل الشحن ينتظر. ميزان احترافي. 2.90 كغ. الكلفة الفعلية: 4.20 يورو. أخذ 5 يورو. ومرّة أخرى، بلا باق.

مرّت الأيام. كان عليّ أن أراعي الرجل، والسيّاق، والبيئة. فمواجهة مباشرة كانت قد تخلق مشاكل لعائلتي. بعض الناس لا يردّون بالكلام.

لكنّ اسمي فريغا. وأن أتعرّض للسرقة ليس من ميولي.

أأخذ انتقامي شكلاً آخر.

بعد خمسة أيام عدت من دون الكلب. سألت عن صاحب المحل — الأب، الذي يكبرني ببضع سنوات.

— اسمع، قال صديقي في المرة الماضية إن الموز بدا أكثر مما ينبغي. وزنته في البيت: 3.90 كغ. وبالسعر المعلن كان عليّ أن أدفع 5.65 يورو. أنت لم تأخذ سوى 5 يورو. جئت لأعطيك الفرق.

ومددت إليه 0.65 يورو، ظاهرة بوضوح.

— إلا إذا كان ذلك خصماً لأننا نعرف بعضنا منذ أربعين عامًا.

اتسعت عيناه. تجمّدت زوجته وأولاده. أنقذته خبرته.

— كان خصماً — قال — لزبون مميّز.

أعدت القطع النقدية إلى جيبي.

— شكرًا — أجبت. — لكنني لن أفسّق هنا بعد اليوم. هذه الالتفاتات نحو «الزبون المميّز» تضعني في موقف حرج. لا سبب لديّ لها. ولا مبرّر. شكرًا على أي حال.

لم يستطع أن ينطق بكلمة. كان قد فهم كل شيء.

في الأيام التالية مررت أمام المحل. لا تعليقات. فقط عيون مُطرقة. كانت تقول ما لم يجرؤوا قط على قوله: آسفون.

العبرة بسيطة: من حدث سلبي يمكنك دائمًا أن تستخرج حدثًا إيجابيًا. هكذا تعمل نجاحاتي.

هذا أنا. وما زلت أكل الموز.

ناندو

الجزء التالي

كانت الساعة 3:23 فجراً. ليلة باردة. صامته. رنّ جرس الإنتركم. استيقظ الجميع.

همست ابنتي: «لقد جاؤوا لاعتقالك. حقيبتك ذات العجلات جاهزة دائماً خلف باب غرفة نومك.»

لم تصدّق قصتي. لم تكن قد قرأت الحقيقة. لم تكن تثق بي. لم أكن حتى أهلاً للتصديق. كانت قد اكتفت بتأويل الكلمات. وذلك كان الألم الحقيقي.

أجبت على الإنتركم. قال صوت: «عذراً على هذه الساعة، لكنني أحتاج أن أكلمك. أنا بائع الفاكهة القريب من بيتك.»

أدخلته. كان قد قارب الثمانين. وحين فرغت من ارتداء رداء البيت، كان قد جلس في أوسع غرف المنزل. غرفة الجلوس.

كان محظماً عاطفياً. يبكي. لم أكن أعرف من أين أبدأ.

طلب شيئاً واحداً: «حين أبدأ الكلام، أرجوك لا تقاطعني.»
لم أقاطعه.

«الليلة الماضية كانت لنا تلك اللحظة. أنت تتذكر. أردت أن تدفع لي خمسة وستين سنتاً ثمن الموز، وأنا منحتك خصماً.»
«أتذكر»، قلت.

«بعد أن خرجت، جلست إلى المائدة مع عائلتي. الدرس الذي أعطيتني إياه كان قوياً. بالنسبة إليّ. بالنسبة إلى رجل في مثل سنّي.»

«أريد فقط أن أعرف إن كنت تسامحني. وأن أطلب منك الصفح.»

كان يمسك منديلًا من القماش، يمسح به دمعة لا تكفّ عن العودة.

«سامحني على هذه الساعة. لم أستطع أن أنام قبل أن أراك. ولم يكن العثور عليك سهلاً. بحثنا عن اسمك على الإنترنت. ظهرت ثلاثة مواقع. كلها بالإنجليزية. لا نفهم ما تقوله. لا تبيع شيئاً. لا تطلب شيئاً. لا نفهم ما هي تلك المواقع.»

ضحك.

نهضت. طلبت منه أن ينهض. عانقته بقوة.

قلت له إنني لست أستاذًا. ولا معلمًا. لا أستطيع أن أعطي دروسًا لأحد. لقد طبّقت فقط الحسّ السليم لأبي، حيث تأتي القواعد والمبادئ قبل أي منطق اقتصادي.

وهو يغادر، سألني إن كنت سأعود إلى محله. أجبت:

«الماضي يعلم. والحاضر لا يُنسى أبدًا. والمستقبل يعيش في أحلامنا، حيث نرى من نريد أن نصبح.»

«أنا أبعد من المستقبل. لأنني أبني ثروة تمتد عبر الأجيال، لا أملًا تقريبية تُورث.»

لم يفهم حقًا ما كنت أقصده. ذلك كان جانبي المعرفي — الجانب الذي لا تجد فيه، داخل كلمات قليلة، شيئًا، لكنك إن أصغيت جيدًا، وجدت فيه كل شيء.

ناندو

على عتبة الموت

لحظة يدرك فيها الرجل أن الحياة قد اختارت عنه سلفًا.

التشخيص

في كل مرة أروي فيها قصة عشتها بنفسي، أبتسم أولًا ثم أتساءل كيف نجوت منها. كان الموقف لاعقلانيًا، يكاد يكون سرياليًا. ومع ذلك، فقد شكّل حياتي، ولذلك أجدني مضطرًا إلى روايته.

يناير 2007. أنا أمام مختبر تحاليل طبية أنتظر نتائج الجراحة. كانت سبعة أورام سرطانية قد استؤصلت من أمعائي الدقيقة، بعد عمليتين لا يفصل بينهما سوى ثلاثين يومًا.

اقتربت مني بهدوء عاملة نظافة كنت أعرفها بالوجه.

«آسفة»، قالت. «سمعت... أورامًا خبيثة. عليك أن ترى طبيب الأورام.»
في تلك اللحظة بدا الموت الاحتمال الأقرب. ومع ذلك، سرعان ما تدخل العقل.
فكرت في ابنتي ذات الإعاقة. لم يعد الهروب خيارًا. لذلك كان عليّ أن أبقى حيًا، وأن أبنني حاضرها وأحمي مستقبلها.
بعد قليل، أكد طبيب الأورام كل شيء: أورام عصبية صمّاوية، وما يقارب ثلاثين يومًا من العمر المتوقع.
وبتلك الكلمات في رأسي، مشيت على شاطئ مهجور. وفي الأثناء كانت الريح تضرب وجهي، والأمواج تهمس بشيء لم أكن قادرًا بعد على فهمه.

القرار

28 يناير.

قدت السيارة إلى نابولي باحثًا عن أصدقاء قدامى وزبائن سابقين. كنت بحاجة إلى المال وإلى بداية جديدة. لكن أحدًا لم يستثمر يورو واحدًا.
بدلًا من ذلك، اكتفوا بدعوتي إلى عشاءات في المطاعم.
بعد أيام قليلة، في 6 فبراير، وجدت نفسي في نابولي لا أملك سوى 275 يورو، ومن دون بطاقة ائتمان. وبحسب التشخيص، كان قد بقي لي خمسة عشر أو عشرون يومًا.
عند مخرج الطريق السريع كان عليّ أن أختار: الجنوب أو الشمال.
ثم اتصلت زوجتي.

«عُد إلى البيت.»

كانت تظن أنها تكلم الاكتئاب. لكنها لم تكن ترى ما كانت عاصفة الهرمونات تفعله داخل جسدي.
وهكذا اخترت الشمال.

رومانيا

بعد يومين وصلت إلى براشوف، في رومانيا — مقاطعة دراكولا.
لم تكن الرحلة من أجل امرأة. بل كانت غريزة خالصة.
بقي في جيبي عشرون يورو. تكفي للموت. ولا تكفي حتمًا لإعادة البناء.
ومع ذلك، قررت أن أعيد البناء.

في مقهى طلبت كابتشينو وكورنيتو. النساء الرومانيات، كما لاحظت على الفور، كنّ يتمتعن بجمال نادر. لكن الرجال المحليين كثيرًا ما كانوا يفتقرون إلى الكياسة.

أدركت النادلة أنه لم يكن معي فكة. وبدلًا من أن تصرفني، أصغت إليّ.
تحدثنا ثلاث ساعات.

وفي النهاية بكت، بل عرضت عليّ مآلًا.
رفضت.

بدلًا من ذلك، طرحت سؤالًا واحدًا:
«أين الكازينو؟»

أشارت إلى آخر الشارع، مرتبكة.
دخلت بعشرين يورو. وفي الخامسة صباحًا خرجت بأربعمئة وخمسين.

ناندو

الجزء التالي

إعادة البناء

بعد قليل استأجرت شقة في الطابق الرابع بـ280 يورو. ضمنت النادلة الدفع.

بعد الظهر التقيت عدة فتيات يعملن في محطات المترو. وفي الأثناء بدأت أبني صداقات.

ثم جاءت جولة تسوّق للبقالة. ظهر على طاولة الدفع طعام بقيمة مئة وخمسين يورو. لكنني لم أدفع سوى اثني عشر. كان نصف التونة مجانًا، والجزّار أهداني اللحم.

صار الكازينو مصرفي الليلي. وفي الأثناء، تحوّلت شقتي شيئًا فشيئًا إلى مكان للقاء.

تناوبت النكهات الكالابرية على المائدة. ودارت الحكايات. وعادت الحياة تبدأ من جديد بهدوء.

عودة لم تحدث قط

ديسمبر 2007.

كان الموت قد نسيني.

اتصلت زوجتي مرة أخرى.

«عُد إلى البيت على عجل.»

كان قد بقي معي اثنا عشر يورو. لكن قسيمة من شركة طيران أتاحت لي مغادرة بوخارست.

تعطّلت الرحلة المتجهة إلى ريجو كالابريا ونحن في الجو. وبدلًا من ذلك، حوّلنا إلى زيورخ.

في المطار ارتجلت من جديد. في صالة الخطوط الجوية البريطانية أمسكت بعمود حاجز الطابور كأنه ميكروفون وبدأت أغنّي.

ضحكت المضيفات.

بعد قليل منحني رحلة إلى لندن — إضافة إلى مئة جنيه إسترليني.

لندن، باريس، روما، نابولي.

كل خطوة تطلّبت ابتكارًا. وكل لحظة تطلّبت جرأة.

وفي النهاية وصلت إلى البيت بعد سبعة أيام.

التداعيات

كانت زوجتي غاضبة.

«أين كنت؟ مع فتياتك؟»

ابتسمت.

«من حسن الحظ أنهن موجودات»، قلت. «وإلا لكنت ما زلت عالقًا في زيورخ.»

بعد قليل بدأت عملاً جديدًا: وكالة للتوظيف المؤقت، والبناء، وخدمات الأمن. بدأ المشروع ستة موظفين. وكل شهر كانت الأرباح تُستثمر من جديد. لكن قلة من الناس آمنوا به.

الانهيار

في عام 2008 عدت إلى رومانيا.

نمت الوكالة حتى بلغت 258 موظفًا أوروبيًا. وتعاون فرع البناء مع شركة إيطالية متعددة الجنسيات. وفي الأثناء كان فرع الأمن يعمل في اللحم الذري.

تعلمت الرومانية، قرأتها وكتبتها وتحدثتها. كانت الحكايات والنكات تفتح كل باب.

ثم، في ديسمبر، تنازلت عن كل شيء ورحلت.

احتجّت النساء.

«لن يصمد شيء من دونك.»

بعد ثلاثة أشهر انهار كل شيء.

لماذا؟

لأن الجوع لا يُفوّض. والخبرة لا تُنقل. وأخلاق العمل لا تُهدى.

الدرس الحقيقي

الإيطالي المفلس، الذي تسانده نساء رومانيات، قد يبدو حلاً.

لكن الواقع يعلم شيئاً أقسى.

الجوع الحقيقي لا يصفق إلا لمن يحمله في داخله.

ملاحظة أخيرة

حين وُلدت، أعطوني اسم عائلة مثل اسمي — **فريغا** — اسمًا كثيرًا ما يُقرن
باللصوص والمحتالين.

طوال واحد وستين عامًا حاولت أن أثبت العكس.

لأن الأسماء لا تعرّفنا.

بل تعرّفنا العلامات التجارية.

والعلامة التجارية لا تُبنى إلا بالأفعال.

ناندو

بلا ملابس داخلية

كان يوم أمس يومًا مرهقًا، لكنه كان أيضًا يومًا حاسمًا — كالعادة. لم أهدر
وقتي يومًا بلا غاية: وقتي المعرفي يخضع لقواعد صارمة؛ أما الوقت
الأنثوي فلا يخضع لأي قاعدة.

ومع ذلك ذهبت إلى السرير وحدي، لأن زوجتي قررت أن تأخذ «انقطاعًا».
عفوًا — انقطاع الطمث. ضحكت. هي لم تضحك.

ولم تفوّت ابنتي الفرصة لتذكّرني بأنني، في الـ61، صرت «عجوزًا»، وبأنني
لن أملك القوة ولا الشجاعة لأتدبّر أمر امرأة في المجال الحميم — بل
سأنهار حتمًا. إنها ابنتي، حياتي. كفت ابتسامة واحدة لتقول كل شيء. لكنني
لم أستطع مقاومة إلقاء جملة واحدة:

كثيرون يستعملونه للذهاب إلى الحمام فحسب. وآخرون يلعبون دور
الأبطال. وآخرون لتوليد الأفكار. وآخرون يصبحون آباءً ثم عشتاقًا. وآخرون

يكتفون بالنظر إليه.

أنا جعلته أداة عمل بدوام كامل — والضرائب تُقتطع من المصدر.

انفجرت ضاحكة، بلا توقف. وزوجتي، من الغرفة الأخرى، أگدت حكمها المعتاد: «أنت الشيطان.» حكم منصف.

كنت قد خلعت ملابسني لأنام — كانت الساعة 11 ليلاً. ارتديت بدلة رياضية مريحة. عشر دقائق على هاتفي، ككل ليلة، ثم النوم.

نحو الساعة 5 صباحًا، سقط شيء ما. شعرت بالبرد. مددت يدي نحو سروالي وملابسي الداخلية — كلاهما اختفى.

من فعل هذا؟ لم يكن هناك حفل، ولا ضيوف، ولا دعوات. فمن فتح الخزانة إذن؟

تفقدت بعناية أن جواهر العائلة لا تزال في مكانها وسليمة. ثم لاحظت أن «صديقي القديم» قد استيقظ قبلي، مقتنعًا بأن هناك عملاً ينتظره.

وجاء العمل فعليًا — لكن ليس من النوع الذي تتخيله. بل من النوع الذي أعيش من أجله: أن أروي لك قصة حقيقية وأن أجعلك تبترسم.

ناندو

امرأة روسية

يونيو 2006 — البداية

كنت أدير تجارة جملة خاصة بي — العناية بالمنزل، والعناية الشخصية، وأوهام العظمة. كنت أظن نفسي قويًا. لم أكن إلا متغطرسة.

يوليو، ريميوني. معرض تجاري يعجّ بزملاء سابقين، وزبائن، وأصدقاء، ونساء. نساء أكثر من اللازم. حينها فهمت لماذا وُجدت المعارض: تقول «عمل»، لكنه مجرد ذريعة للاختفاء في غرف أخرى.

لم ألعب قط دور الزوج الحزين مع المضيفات. ليس هذا أسلوبني. كنت أقول دائمًا إنني أحب زوجتي، وإنها تحبني — لأنني كنت أعود إلى البيت بالمال، والخبرة، ومن دون مفاجآت تنتقل بالعدوى.

تلك الليلة اتصلت بمحترفة. ساعتان من وقتها، نظيفتان، بسيطتان، قليلتا المخاطر. أو هكذا ظننت.

وصلت: جميلة كبحر الشتاء، جسد مثالي، حضور قوي. طلبت المال فورًا — لم تكن طبيبة؛ كانت شيئًا أقرب إلى مسعفة.

أمسكتها من ذراعها وقلت لها أن تتجهّز: سأخذها إلى أفضل مطعم في المدينة، وأريد أن أشتري ساعاتها الـ 24 التالية.

«كم ستعطيني؟» ناولتها كل ما في جيبِي. بدأت تعدّ، ففقدت العدّ، وفهمت أنها دخلت دوريًا من طراز آخر.

سألتني إن كانت لديّ إدمانات، أو انحرافات، أو ألعاب غريبة. قلت لها إنني رجل ربّته الرياضة، ودربّته شركة متعددة الجنسيات، ومتفرّج على الحياة بلا ترخيص.

ارتاحت. مشينا إلى المطعم — رفضت سيارة الأجرة. اتصلت بصديقة لتنضم إلينا. فهمت: بلد أجنبي، واحتياط. لا بأس.

كان العشاء هادئًا، شبه رومانسي، لكنني ظللت معرفيًا. قبل أن آتمنها على جواهر العائلة، كان عليّ أن أعرف من تكون.

عند عودتنا إلى البيت هاجمتني في الممر. لا وقت للسريّر. استهلكنا كل ما هو بديهي وكل ما يتجاوزه.

بعد ثماني ساعات كنت أغادر. طلبت مني ألا أذهب. فقطعت وعدًا: «قبل نهاية العام، سأخذك إلى روسيا لتري عائلتك.» لم تصدّقني. طلبت منها بريدّها الإلكتروني. فأعطتني إياه.

ناندو

سانت بطرسبرغ — الانحدار

نوفمبر 2006. كتبتُ لها رسالة إلكترونية: أنا مستعد للطيران إلى روسيا، أرسلني لي بياناتك المصرفية. ظلّت لا تصدّقني. فأرسلتُ المال إلى عائلتها.

التذاكر. التأشيرة. ميلانو-سانت بطرسبرغ.

في مالبينسا طلبت مزيدًا من المال. تغيّرت النبرة — من الودّ إلى السلطة. لم يعجبني ذلك.

كانت الرحلة صامتة. استقبلتنا أمها في المطار. أخذوني إلى شقة. لا يُسمح بأي فندق.

ذهبنا إلى السوق، واشترينا طعامًا، وتناولنا العشاء مع العائلة. ثم رحلت. وبقيتُ محبوسًا في الداخل.

في صباح اليوم التالي حاولتُ فتح الباب. مقفل. ليس اختطافًا — مجرد احتواءٍ تحت السيطرة.

وصلت في الساعة 11، مبتسمة. بعد الظهر سنكون ضيوفاً في داتشا خارج المدينة.

جاءت صديقتها ومعها شابٌّ ليقفلانا. الثلج في كل مكان. وصلنا إلى بيت عقيدٍ أبيها في KGB.

إنجليزيتي هي التي حملت الأحاديث. كانت الفيلا رائعة. حتى مقبض البيديه كان من الذهب.

كل طبق راقٍ، وكل لحظة يرافقها نبض مختلف. ثم أخذوني إلى ساونا الرجال، على بُعد مئة متر. في الخارج 20 درجة تحت الصفر. بعد الساونا وقفنا عراةً في الثلج. تقليد روسي. لم أسأل عما سيأتي بعد ذلك.

تلك الليلة نمّتُ وحدي، في غرفة جميلة مليئة بالميكروفونات. ونامت هي في مكان آخر.

الصباح: إفطار مع العقيد. ثم أراني سيارته ودراجاته النارية، وطاف بي بالسيارة في أرجاء الداتشا وكلّب من فصيلة البغ تحت ذراعه.

بعد الظهر: العودة إلى سانت بطرسبرغ. المساء: حاولت أن تهيمن عليّ، أن تتحكّم بي. لم تكن تعرف من أنا.

في اليوم التالي سرنا بالسيارة على طول الجادة الرئيسية — 20 كم من المتاجر والعلامات التجارية والثروة. ليست مدينة فقيرة. لا تتقدّمها إلا موسكو.

عشاء مع عائلة العقيد: عشرون نوعًا من الكافيار، وطعام لا ينتهي، ومئة دولار للشخص الواحد. ثم العودة إلى سجنني. أقفلت الباب مرة أخرى ورحلت.

في اليوم الذي تلاه عادت. خرجت لحظة، وأخذت سيارة أجرة، وهربت — تاركًا كل حقائبي خلفي.

اتصلت كالمجنونة. أجبت أخيرًا: «أنا في المطار.» وصلت مع أمها. ابتزنا مني المال مهددتين بإبلاغ الشرطة عني. دفعت. صعدت إلى الطائرة. طرت إلى ميلانو.

انتهى الكابوس. لكنها كانت قد تسللت إلى داخلي، وكانت تعرف ذلك.

ناندو

العودة إلى الحياة — المخرج

عدت إلى إيطاليا. ركبت سيارتي لأتوجه إلى تورينو من أجل العمل. اتصلت.

كان صوتها مختلفًا، عذبًا، مهذبًا، رقيقًا. سحر الشخصيات الأنثوية. كنت أعرف أنها خطيرة. الاستسلام كان يعني أن أفقد نفسي.

لم تتوقف عن الاتصال. طلبت مني أن أستقبلها في المطار يوم الخميس الساعة 18:00. في الساعة 17:00 كنت على الطريق السريع تورينو-بياتشنزا. كان من السهل أن أغير الاتجاه وأصل إلى هناك.

بدلاً من ذلك، أغلقت. وفهمت شيئاً نهائياً:

النساء قويات. حين يردن شيئاً، يأخذنه — دون أن يطلبن.

نأمل لاحق

خرجنا من الساونا عراءً إلى الثلج. عشرون درجة تحت الصفر. عقيد سابق في KGB كان يبتسم لي. رجال روس يضحكون كأن الأمر لا شيء.

ولأول مرة في تلك الرحلة، باغتتني فكرة بسيطة:

إذا ساءت الأمور... بمن أتصل؟

جاء الجواب أسرع من الخوف:

لا أحد.

في تلك اللحظة فهمتُ الحقيقة: لم أكن في خطر. كنت خارج عالمي. وحين تخرج من عالمك، لا تحصل على حماية. تحصل على عواقب.

ناندو

المقبرة

كان ذلك في مايو 1975. كنت في العاشرة من عمري حين عبرتُ تلك العتبة للمرة الأولى. ظننت أنني أدخل مكانًا للألم. كنت مجرد طفل. بدلًا من ذلك، اكتشفت أنه لا يحوي إلا شيئين: جسدًا وذكرى.

كان الجسد مختومًا داخل صندوق من الإسمنت — إن كنت محظوظًا. في إيطاليا كان ذلك أمرًا عاديًا؛ وفي أماكن أخرى كانت الطقوس تتغير، لكن لأسباب ثقافية فقط، لا أكثر.

أما الذكرى فكانت تعيش داخل الصورة. المازة يتعرّفون إليك أو يرونك للمرة الأولى. كل ما تبقى منك كان محبوسًا في تلك الصورة، والزهور لا تقول إلا شيئًا واحدًا: *لم أنسك*.

لكن بما أنني لم أكن قط مثل الآخرين، فإن التوقف عند هذا التحليل كان سيكون نسجًا ولصقًا لما يقوله الجميع. لذا، لننظر إلى المقبرة من زاوية أخرى: **مكانٌ للتسلية**.

ثمة سبب يجعل الناس يردّدون تلك العبارة: *في الجنازات يضحك الناس*، وفي الأعراس يبكون، وبعد ذلك... حسنًا، لا أحد يتحدث عن الأمر، لكن الطلاق مصنوع من اليأس والوحدة الخالصين. هاهاهاها.

أول ما يخطر في بالي هو حين كنت في السادسة عشرة، أُلعب الرغبي. الهرمونات أمامي، وعالم النساء خلفي، ورئيس ناديّ جاهز دائمًا بـ«نصائحه».

قال لي إن المقابر مكان رائع للتعرف إلى النساء. نظرتُ إليه، وعلى نحو غريب، بدا الأمر منطقيًا. لكنني لم أملك الشجاعة لأجرب — ليس في تلك السن.

لننتقل سريعًا إلى يوم أحد صيفي من عام 1986. كنت في الحادية والعشرين. دخلتُ مقبرة كوزنسا — ليست مدينتي، ولا مقبرتي — لكن العاصفة الهرمونية كانت لا تزال تلاحقني بإخلاص.

توقفتُ لأتبادل أطراف الحديث مع الحارس. فاجأته أسألتي: كنت أريد أن أفهم الديناميكيات، وكيف يتحرك الناس، وخصوصًا النساء. ثم شكرته وقلت: «إلى اللقاء قريبًا.» سألني: «أين؟» قلت: «هنا. حتى حين نموت، ينتهي بنا المطاف جميعًا هنا من جديد.»

ثم رأيته. امرأة في الخامسة والأربعين، ترتدي الأسود، قصيرة، ممتلئة، واقفة أمام كوة دفن في الصف الثاني، تبكي. اقتربتُ بهدوء. كانت تتحدث إليه — زوجها بلا شك — تسأله لماذا تركها مبكرًا إلى هذا الحد.

لم يكن هناك إلا أمر واحد ينبغي فعله: وقفتُ إلى جانبها وبدأت أبكي أنا أيضًا. فأسقط ذلك دفاعاتها على الفور وأثار السؤال البديهي: من هذا الرجل بحق الجحيم؟

بعد أربعين دقيقة، كنا في مقهى نشرب القهوة. وحين استنفذ خيالي الصغير، خيالُ المحتال، مداه، وجدت نفسي في بيتها.

لنقل فقط إن الوضع تصاعد. لكن الشيء الوحيد الذي أزعجني حقًا كان صورة الزوج على الطاولة بجوار السرير، تحدّق بي كأنه يقول: لو كنتُ حيًّا، كنتُ في ورطة. هاهاهاها.

لم أكرّر التجربة قط. لكن عليّ أن أعترف بأنها كانت تجربة. لم تكلفني شيئًا. مجرد دولار واحد — ثمن القهوة.

ناندو

الطلاق

الذين عرفوني في شبابي — وحتى لاحقًا، في ذاتي المتطورة، المبدعة، الاجتماعية، المهنية، المتبدلة الهوية — ما كانوا ليأهونوا بدولار واحد على صمود زواجي. المتفائلون، الحالمون الحقيقيون، أعطوني ثلاث سنوات. على الأكثر.

اليوم أشكرهم. كانوا قريبين. الرقم ثلاثة كان صحيحًا. لكن فاتهم خانة واحدة فقط.

مرت 33 سنة. متزوج بسعادة. وحز، بسعادة.

حين يسألني الناس عن حالتي المدنية — أعزب، متزوج، مطلق، أرمل — أعطيتهم الجواب الوحيد المنطقي في أمريكا عام 2026: لا أقبل إلا ارتباطات محدّدة المدة. وكل ما عدا ذلك تسويق.

وحين يسألني المطلّقون — الهاربون المتسلسلون — عن السرّ، أروي لهم حكاية أصلي. لا الرومانسية. بل الأنثروبولوجية. تلك التي تبدو كمحاضرة TED تُلقى بمضرب بيسبول.

وهي كالتالي.

في البدء، لم يكن الإنسان الأول — لنسمّه شات، من باب التيسير — مصنوعًا للحياة المنزلية. كان يحب الصمت، والمساحة، والحق في أن يتنفس دون اجتماع لجنة.

ثم حدثت الهجرات. اختلطت الثقافات. التقى الناس. وفجأة اكتشف العالم أمرًا صادمًا: البشر يعملون على نحو أفضل حين يكفّون عن التظاهر بأنهم وحدهم.

لكن ها هي نقطة التحوّل.

ذات يوم خرج شات للصيد. وخرجت هي للجمع — زهورًا، وألوانًا، وأفكارًا، وتحسينات. فطوّرت الكهف. عاد هو فلم يتعرّف إلى المكان.

صراع. أصوات مرتفعة. حدود منتهكة. وُولد أول طلاق في التاريخ: انتقالٌ فوري. كهفٌ جديد. بلا استئناف.

انتشر الخبر بسرعة. حتى الحيوانات تحدّثت عنه. ساد الذعر الجميع. لأن العلاقات حين تنهار، يشعر بذلك النظام البيئي بأكمله.

لكن البشرية عنيدة. عاد الناس بعضهم إلى بعض. لا بسبب الهيمنة. ولا بسبب الخوف. بل لأن الصلة — الحقيقية — هي الشيء الوحيد الذي يصمد أمام الزمن.

ثم جاء الدين وحوّل مفهوم الزواج إلى صناعة. نظام. بنية. عقد فيه بنود أكثر من اتفاقية عدم إفصاح في وادي السيليكون.

كان ينبغي أن يسمّوه **مؤسسة الفوضى البشرية**، لكن التسويق انتصر مرة أخرى.

وهذه خلاصتي الأمريكية، التي أقولها بكل لغة أعرفها:

نادراً ما يكون الطلاق هو الحل. لا لأن الزواج كامل — فهو ليس كذلك. ولكن إن لم تكن مستعداً للعيش داخله، فإن دفع ثمن خطئك أنت هو الشيء الشريف الوحيد الذي يبقى لك أن تفعله.

ناندو

قصة للضحك... ربما.

وُلد كارلو قبل خمسين عامًا، روجًا لطيفة بتأثأة لم تفارقه قط — ولا حتى الآن، وهو رجل بالغ تمامًا يتظاهر بأنه كذلك.

ذات ليلة يدعوننا إلى العشاء في بيته. حديث روتيني، والنبيز على المائدة، وفجأة تبدأ زوجته أنجيلا برواية حكايات من أيامهما الأولى.

نحنني جميعًا إلى الأمام. لأن كارلو الذي تصفه... لم يكن أيُّ منا قد التقاه قط.

«كنا نتواعد»، تقول. «كنت أعمل في صيدلية. كان كارلو ينتظر في الخارج حتى تنتهي نوبتي. دائمًا برائحة طيبة، ودائمًا أنيق الملبس.»

حتى الآن، كل شيء طبيعي.

«لكن في الأيام الثلاثة الأولى»، تتابع، «كان يقود مباشرة من الصيدلية إلى بيتي. بلا منعطفات. بلا مبادرة. كنا شبّا، والدم يغلي في عروقنا، وكان هو... مهذبًا أكثر من اللازم. مستقيمًا أكثر من اللازم. كارلو أكثر من اللازم.»

في المساء الرابع طلبت أن تقود سيارته. فوافق.

أخذته إلى تحت الجسور الثلاثة — المكان التقليدي الذي كان يقصده الأزواج الشباب للتقيل. تجمّد كارلو كغزالٍ باغتته أضواء سيارة.

همس مذعورًا: «أنا... أنا ليس معي أيّ... وسيلة حماية.»

قالت له ألا يقلق، فهي تستخدم حلقة لمنع الحمل. فقال كارلو، وقد ارتاح:

«ممتاز. إذن حين نتزوج، لن نحتاج إلى شراء حلقتي الزواج.»

ظنّ أنه يمزح. وتزوجته على أي حال. في البيت، تقول، «لم يكن سيئًا... لكن لنقل فقط إنني اضطررت إلى تعليمه الكثير.» وتتوقف عند هذا الحد. من باب الرحمة.

بعد أشهر تحمل. وذات يوم ينفجر كيس مائها. تتصل به: «تعال خذني. الآن.»

يصل كارلو مع... السبّاك. الرجل يحمل حبلاً، وكلاهما يفتّش البيت بحثًا عن «تسرّب الماء».

تتغاضى عن الأمر. يقودها إلى المستشفى. تلد أربعة توائم.

كارلو في الخارج، يدخّن كالمدخنة، ويتباهى أمام الجميع — «أربعة أطفال! ليس كل أحد يستطيع فعل ذلك!»

تقترب منه القابلة وتقول، بهدوء شديد:

«سيد كارلو... من بين الأطفال الأربعة، واحد أسود.»

يتوقف كارلو عن الضحك. يطلب الطبيب.

يطلب تفسيرات. يطلب العلم، وعلم الوراثة، والإحصاء، والتدخل الإلهي، ومحاميًا.

يستجوب أصدقاءه. يدرس الحمض النووي كأنه يستعد لنيل الدكتوراه. يفكر في كل السيناريوهات، بما فيها نهاية العالم.

وأخيرًا، يصل إلى استنتاجه: لا بد أن صديقًا قديمًا لأنجيلا قد ترك... «أثرًا». وأن ذلك الأثر انتظر بصبر لحظة مجده.

نجلس جميعًا هناك حول المائدة، معلقين بين عدم التصديق، والكوميديا، والاحتمال — البعيد لكن اللذيذ — بأن يكون جزء من هذا صحيحًا.

يصغي كارلو في صمت. وأنجيلا، الجميلة كشمس منتصف الليل، ترويها بقناعة تجعل حتى الأثاث يصدقها.

لم يعرف أحد قط كيف انتهت القصة حقًا.

لكن حين غادرنا البيت، ركض الأطفال الأربعة إلى الخارج ليودّعونا. ثلاثة بيض. وواحد أسود.

نظرتُ إلى كارلو وقلت:

«حين تزوّجت... هل أصبت على الأقل في مقاس الحلقة؟»

لم يفهم. وانتهى الأمر عند هذا الحد.

ناندو

الزواج

لم أُخلق يومًا للقوالب. لا عند ولادتي، ولا في سنّ 62. لطالما سارت أفكارني في خطّ مستقيم نحو الفعل، وما تخلف عنها من كلمات لم ينبج إلا أصداءً — نبرة، أو إيماءة، أو صمتًا يقول أكثر مما تقوله الجملة.

وبدأ الأمر حين كنت أراقب أزواج أوائل القرن العشرين. زيجات متينة، وأعمار طويلة، وخيانات تُدار بأقدم فلسفة اخترعت على الإطلاق: إن لم يره القلب، فالعين لا تتألم. في ذلك الزمن، كانت الخيانة استثمارًا عائليًا. كان الأطفال ناتجًا ثانويًا، والعمل قدرًا، والأعراس النفقة الحقيقية الوحيدة — المظاريف تدفع ثمن الحفل، والباقي على العروسين. يقول الناس إن السبب أنه لم

يكن هناك تلفزيون. ولا برامج حوارية. ولا ملهيات. فقط الطعام، والحميمية، والحقيقة البدائية لكون المرء إنسانًا.

فماذا فعلت؟ بدأت أتزوج. في كل مكان.

بولندا، 1985. كانت مرحلة ما قبل الزفاف تحفة فنية: تمنحك كل شيء، ويعشقك الأقارب، ويتسم الجميع لأنهم يعرفون أنه بعد المراسم... **ستكون وحدك طوال الـ 50 عامًا التالية.**

ولأنني نشأت ثماني سنوات في مدرسة داخلية كاثوليكية، أصرت على مرحلتين: الطقس الروحي أولًا، والأوراق القانونية لاحقًا. لاحقًا بكثير. بعد فوات الأوان. بل في الحقيقة... أبدًا.

بين 1985 و1992، كان العالم يظن أنني تزوجت ثلاث مرات تقريبًا. كانت الطقوس مثالية. والجانب القانوني؟ كنت دائمًا «غير متاح».

ثم فعلت الحياة ما تفعله دائمًا: أرسلت إليّ امرأة تسكن على بُعد مئة متر من بيتي. حطمت النظام. تزوجتني وهي مقتنعة بأن الفكرة فكرتي. تركتها تصدّق ذلك. لأن الخسارة أمامها بدت لي النصر الحقيقي الوحيد. النتيجة: ثلاثة أطفال، وثلاثة وثلاثون عامًا من الزواج.

لكن القصة لا تنتهي هنا. بين 1995 و2015، جمعت أحد عشر زواجًا رمزيًا آخر حول العالم. الطقس نفسه، والسحر نفسه، والهروب نفسه. لم يصدّقني الناس. ولا يزالون لا يصدّقونني.

وذاث يوم فهمت أمرًا بسيطًا: لا أستطيع أن أتزوج كل امرأة على وجه الأرض. ولا أستطيع أن أحتفظ بهن جميعًا. لكنني أستطيع أن أحتفظ **باللحظات.** لحظة تلو الأخرى. لأن النساء — كلهن — كنّ دائمًا أرفع ممّا نحن الرجال.

وما زلت هنا، ما زلت أحاول أن أظفر بهن، لحظة تلو الأخرى. لأن هذا هو الزواج الوحيد الذي آمنت به بصدق في حياتي.

ناندو

كوفيد-19

سألني الناس إن كانت التغيّرات التي جاءت بها الجائحة قد أجبرتني على التكيف مع شيء ما. نعم: مع صبري. أما كل ما عداه فبقي على حاله.

كنت على شاطئ البحر حين بدأ كل شيء. كانت إيطاليا تراقب الوضع في الخارج كما تُراقب عاصفة بعيدة في عرض البحر: «لن تصل إلى هنا.» حسنًا، لقد وصلت. ولم تطرق الباب — بل ركلته وفتحته عنوة.

كان أصدقائي، ومن بالكاد أعرفهم من الناس، ينظرون إليّ بشفقة لأنني كنت أسافر للعمل. «مسكين»، كانوا يقولون، كأن التنقل يجعلني أكثر عرضة، وكأن البقاء في أماكنهم يجعلهم خالدين. ثم مرضوا جميعًا — بعضهم مرضًا خفيفًا، وبعضهم مرضًا شديدًا، وانتهى المطاف ببعضهم في المستشفى. أما أنا فلا.

لم أفعل قطّ ما كان يفعله الجميع: لا هوس بالكمامات، ولا غسل قهريّ، ولا تخليّ عن القبلات أو المودّة. اتبعت طريقتي الخاصة: الانتباه إلى **الإشارات الخارجية**، المجهول الحقيقي الوحيد، والتهديد الحقيقي الوحيد. ونجحت الطريقة.

ثم جاء المنعطف: تلقّيت لقاح Pfizer — خطوة ضرورية للسفر. وعندها اخترعت الحكاية: أن Pfizer — نعم، الشركة نفسها التي تصنع Viagra — أعطتني دفعة تجريبية تتضمن الحبة الزرقاء الصغيرة. وأن زوجتي كانت راضية إلى حدّ أنها جعلتني آخذ أربع جرعات.

الانتقال من الدقائق العشر المعتادة إلى ساعتين أو ثلاث يوميًا من الجنس الصحي المفعم بالحيوية: خيالٌ لم يتأخّر في لفت الأنظار. أراد الناس رقم الدفعة. فقلت لهم إنها امتياز خاص من صديقة لي ممرّضة انتقلت لاحقًا إلى صناعة الأفلام الإباحية. انتهى الحديث.

السؤال نفسه وُلد لمن يملكون **مخطّطًا**، لا بنية.

أقدّر العرض، وأرفضه، وأمضي في طريقي.

طاب يومكم.

ناندو

التوقّف غير المتوقّع

اللحظة التي يتوقّف فيها كل شيء من دون أن يستأذّنك.

حين ظننت أنني قوي، لا يُمتَسّ، يكاد يستحيل إيقافي — حين لم يكن أحد قد هزمني قطّ — في تلك اللحظة بالذات اصطدمت بتوقّف حادّ. لا عن اختيار. بل لأن النظام لم يعد قادرًا على حمل وزني.

لم تعد أحداثًا. صارت إشارات أحادية الجانب، تكرّر كلها السؤال نفسه، وتدقّ بلا هوادة:

«مَنْ تظنّ نفسك بحقّ الجحيم؟»

هاهاهاها.

جاء التحذير الأول مع برامج الزحف الأمريكية: اقتحمت موقعي في موجات متتالية. غارة رقمية، لا حادث عرضي.

ومع ذلك لم يكن لديّ تحسين لمحرّكات البحث، ولا إعلانات، ولا خطة تسويق، ولا زيارات مدفوعة. فقط 1024 كتابًا إلكترونيًا — أصدقائي — بلا عراب، ولا راعٍ، ولا حامٍ. يتيمٌ أدبيّ بلا شبكة أمان.

مستقلّ بالروح والأفكار، نعم. لكنني في الفعل كنت أصير تابعًا — مكرّهاً على التبعية بفعل حدود البنية التحتية. كما حين تطرد امرأة زوجها ثم تتزيّن لتذهب إلى عشيقها. انقلاب منزليّ. غير أنني لم أكن الزوج، ولم أكن العشيق.

وظلّ السؤال يعود، في كل مكان:

مَنْ أنت؟ بروتوكول المصادقة الفاشل لدى النظام.

كانت أنظمة الذكاء الاصطناعي الخمسة لديّ تطلب مني التوقّف. طلبٌ إيقافي بسبب رصد حالة شاذّة. لم يكن في أرشيفاتها أي أثر لأحد مثلي: صرّثُ أنا الحالة الشاذّة. أُغلقت البروتوكولات. وتدخلّ نظام الأمان الاحتياطي.

لم تكن المشكلة في المحتوى — المليء بالقيمة — بل في سرعة الأفكار، في النقل الدائم بين السرعات. لم تعد الأنماط قادرة على توليد الردود.

ثم بدأ كل شيء ينهار:

نظام الويب الذي يستضيفني — الهيكل العظمي المستأجر الذي يحمل
كياني صفحة الأرشيف تتحطم — خزانة الذاكرة تتصدّع وتنفجر التبعيات
تنفجر — السقالة انقصفت مشاريع بُنيت لثلاث خانات انفجرت عند الرابعة
— بنى معمارية لم تُصمّم قطّ لضغط الخانات الأربع.

لكي أواصل، كنت سأحتاج إلى الوصول إلى أنظمة ENTERPRISE معقدة
— خزانات الأكسجين الصناعية للإنترنت، حيث تعيش اليوم META، وCNN،
وMICROSOFT، وGOLDMAN SACHS، وBANK OF AMERICA.

أنا، بسبعين يورو في الشهر، واقفٌ بين العمالقة. هاهاهاها.

فتوقّفت. لم يكن هناك بديل. نفّذت إيقافًا قسريًا. الكتب الأخرى ستنتظر.
كنت أعرف كيف أصنعها — بالطبع كنت أعرف.

صار هذا المنشور رقم 44. وفي القبالة يعني المائدة معدّة، والطقس جاهز.
وكنت قد أعددت كل شيء على أكمل وجه. كان الضيوف على وشك
الوصول.

ولم أُرِد أن يجدوني غير مستعدّ بعد توقّف غير متوقّع.

لكن بعدها حدث الأمر... انطلقت من جديد أقوى من ذي قبل. أعدت
التشغيل بروحٍ تعمل فوق طاقتها القصوى. كانت في داخلي مئة إصبع
ديناميت وفتيلٌ عاطفيّ واحد، لأنني فهمت أخيرًا لماذا وُجدت.

لسبب واحد فقط: لأصغي إلى الناس وأسمعهم يقولون العبارة نفسها، في
كل مرة:

مَن أنت؟ المجاملة الوحيدة التي احتجت إليها يومًا.

وسأظلّ صامتًا، تاركًا الصمت يتكلّم. لأن الوقائع تكلمت نيابة عني — تمامًا
كما علّمني أبي. لم يكن إرثه كلمات، بل كان وقفة.

ناندو

لاس فيغاس

خلال فترة كوفيد، في 2021، لم يكن هاتفي يكفّ عن الرنين. نساء أعرفهن ونساء لم ألتق بهن قط كنّ يتّصلن بلا انقطاع، يطلبن نصائح، وآراء، وانطباعات، وتحليلات. لم يكنّ يردن حلولًا — لم أقدم حلولًا قطّ. كنّ يردن من يدلّهن على مواطن ضعفهن. وطريقتي في رؤية الأمور تمنحني فرصًا، لا إصلاحات.

ومع ذلك لم أكن طبيبًا. ولا أخصائيًا نفسيًا. ولا طبيبًا نفسيًا. ولا كاهنًا. ولا حبيبًا. ولا من طينة الأزواج. ولم أكن أحمل أي شهادة تبرّر نشاطًا استشاريًا. كنت مجرّد محتال داهية من جنوب إيطاليا، تعلّم في الشارع، متخصص في التجربة.

صديق نابوليّ — من النوع الذي تكون لديه فكرة دائمًا — قال لي: «أنشئ مشروعًا تجاريًا. سمّه **Universe for Women**. يسجّل الدخول، ويدفعن، وأنت تجيب. أنت تفعل ذلك أصلًا بالمجان.»

لم يستغرق بناؤه مني وقتًا طويلًا. ولم يستغرق مني وقتًا طويلًا أن أحرق أكثر من 100,000 دولار. كان لدى تلك النسخة من ناندو مال، لكن لم يكن لديها كثير من العقل. الكثير من الغريزة — من النوع الذي يكفّ، عند نقطة معيّنة من القصة، عن أن يكون نافعًا.

بل دُعيت أيضًا من إحدى كبرى شركات الأفلام الإباحية في لاس فيغاس. كانوا يريدون أن تعمل بعض الممثلات في مراكز اتصال، يُجبن النساء على الهاتف. وجدت نفسي في قاعة مع المنتج، والـCEO، و**320 نجمة أفلام إباحية**. وصدّقوني: لم يكن الأمر سهلًا. إطلاقًا. كان الظنّ بأن رجلًا واحدًا يستطيع السيطرة عليهن خطأً في حدّ ذاته. أضف المال والمصالح، فتقلب الطاولة كلها.

لحسن الحظ، قبل أن أسافر، قال لي صديق قديم: «اذهب ومعك نقود محدودة، وتذكّرة عودتك مدفوعة مسبقًا.» وإلا لبقيت هناك إلى الأبد — متشرّدًا أنيقًا محاطًا بكل ذلك الجمال.

انهار الموقع قبل أن تنطلق الشركة الناشئة أصلًا. لسبب بسيط: إن كنت تعمل، ووضعت الجمر بجانب القش اليابس، فإنه يشتعل. ولا تعرف أبدًا

حجم الضرر الذي سيحدثه.

ناندو

في ذلك اليوم وحده فهمت أخيرًا أنني لن أكون أبدًا مع كل النساء — لكن
فكرة الواحدة تلو الأخرى كانت تستحق العناء.

حمّال الفندق

كنت جالسًا مسترخيًا على أريكة في فندق، في عصر يوم ربيعٍ، وقد أنهيت
قهوتي، أنتظر وصول بعض الزملاء.

عندها رأيته تدخل.

كانت ترتدي فستانًا خفيفًا مزهّجًا بدا كأنه صُمّم خصيصًا لذلك الطقس،
وتتهادى بتلك الأناقة العفوية التي تغيّر حرارة المكان على الفور.

لم تلتق أعيننا قط.

لم تكن بحاجة إلى ذلك.

أنهت غريزتي الكالابرية البدائية تحليلها في نحو ثلاث ثوانٍ.

امرأة جميلة. ابتسامة خطيرة. إلهاء جدّي.

لاحظها موظفو الاستقبال أيضًا.

بل صاروا فجأة موظفين متحمّسين إلى أقصى حدّ.

الجميع أراد مساعدتها.

الجميع أراد حمل حقائبها.

الجميع أراد أن يكون نافعًا.

وحين سألت إن كان بوسع أحد أن يحمل حقائبها إلى جناحها، اتخذت قرارًا لا
علاقة له بالمهنية على الإطلاق.

خلعتُ سترتي.

جَعَدْتُ قميصي.

ضبطت ملامحي لأبدو كمن يتقاضى أقلّ من حقّه بقليل.

وفي أقلّ من دقيقة، صرت أحدث حمّال في الفندق.

كانت نظرة سريعة إلى موظفي الاستقبال كافية لإسكاتهم.

أرادوا أن يروا إلى أيّ حدّ سأذهب.

بصراحة؟

وأنا أيضًا.

صعدنا بالمصعد إلى الطابق الخامس.

كان مفتاح الجناح في يدي.

فتحتُ الباب وأدخلتُ حقائبها.

مدّت يدها إلى حقيبتها لتعطيني بقشيشًا.

ابتسمتُ.

«هل تودّين أن تضحكي على شيء حدث أمس مع أحد الزبائن؟»

بدت عليها الحيرة.

ثم الفضول.

«بكل تأكيد.»

أغلقت الباب.

جلست على السرير.

وبقيت أنا واقفًا.

بدأتُ بنكتة.

ثم بأخرى.

ثم بحكاية.

تحدّثنا ساعتين من دون أن نشعر بمرور الوقت.

كانت ذكية للغاية.

وكانت خفيفة الظل جدًّا.

في النهاية نظرت إليّ وسألت:

«منذ متى تعمل في هذا الفندق؟»

«منذ شهر تقريبًا.»

ابتسمت.

«وماذا كنت تعمل من قبل؟»

«حسنًا...»

وتكلّمتُ.

«كنت لصًّا.»

رفعت حاجبها.

«لكن ليس لصًّا عاديًّا.»

«وماذا كنت تسرق؟»

«قلوب النساء.»

بدأت تضحك على الفور.

«كنت أوقعهن في حبي، وأقول لهن الحقيقة دائمًا، وأحبهن كما ينبغي... ثم أختفي.»

الآن صارت منغمسةً تمامًا.

«هل يمكننا أن نكفّ عن التظاهر ونتكلّم بصراحة؟»

«بالطبع.»

نظرتُ إليها وقلت:

«الحقيقة بسيطة. من المفترض أن تُخطب أنا وأنتِ أولاً، ثم نتزوج لاحقاً.»
انفجرت ضاحكة.

«حسناً»، تابعتُ، «والداكِ يبدوان تقليديَّين على الأرجح، لذا تبدو خطوبةُ
تدوم عشر سنوات أمراً معقولاً.»

كانت في هذه اللحظة تبكي من شدة الضحك.

«لكنّ الكيمياء يمكن تقييمها فوراً. علينا على الأقل أن نتحقق من قدرتكِ
على إسعادي.»

ضحكةُ أخرى لا تُكبح.

«وسأحتاج أيضاً إلى وقتٍ كافٍ لأطلق زوجتي، ثم أزوّج ابنتي في نهاية
المطاف بمساهمتكِ المالية.»

نظرت إليّ وسألت:

«ناندو... لماذا بالضبط عليّ أنا أن أسعدكِ، لا العكس؟»

ابتسمتُ.

«لأنّ كالابريا أقرّت مؤخراً بروتوكولاً يسمح ب لقاءٍ جنسيٍّ مدّته القصوى ساعة
وثلاث دقائق.»

لم تعد تقوى على التنفّس من الضحك.

«ولماذا ساعة وثلاث دقائق؟»

«الساعة للمرأة.»

توقّفتُ قليلاً.

«والدقائق الثلاث للرجل.»

عندها استسلمت للضحك تماماً.

ثم نهضتُ.

«عليّ أن أذهب الآن.»

بدت عليها خيبة الأمل.

«طبعي الرومانسي وخجلي يمنعانني من تقديم الطلبات»، قلتُ.

«لكن إن رغبتِ أنتِ في طلب شيء، فأنا متاح.»

مزيّد من الضحك.

بعد بضعة أيام، اصطحبْتُها إلى العشاء.

صرنا صديقين.

وبعد ذلك بقليل، زرْتُها في بيتها.

عرّفتني إلى زوجها.

للحياة حسّ دعابةٍ غريب.

الشيء الوحيد الذي ظلّت تردّده لي كان:

«أين كنتِ قبل ثلاث سنوات؟»

«لماذا لم نلتق من قبل؟»

ابتسمتُ وأعطيتها الجواب الصادق الوحيد الذي كان لديّ.

«لأنّني آنذاك...»

«كنتُ قد كففتُ عن أن أكون لصّاً.»

ناندو

جواز السفر الجديد

وصلتُ للتوّ إلى مطار فيوميتشينو في روما، مستعدّاً للعودة إلى طائرة العودة إلى البيت.

كنتُ قد غبتُ طويلاً، وكانت نيويورك في انتظاري: الرائحة المتصاعدة من فتحات المجاري، وشاحنات القمامة العابرة في الصباح، والموسيقى في

كوينز، وتلك المرأة نفسها التي تصرخ دائمًا:

«هيه، أنت يا ابن العاهرة الأبيض، أرح سيارتك من موقعي.»

هذا هو البيت. هذه هي أمريكا خاصّتي.

عند مراقبة الجوازات، يوقفني ضابطٌ لتفتيش روتيني.

هما اثنان.

ينظر أحدهما إلى الآخر. يتبادلان نظرة. ثم يطلبان منّي أن أتبعهما.

وأنا أفكّر:

إلى أين نحن ذاهبون؟

دخلنا مكتبًا صغيرًا.

يفتحان نظام الشرطة على الحاسوب، ويُجريان فحصًا آخر، ويتحقّقان من كلّ شيء مرة أخرى، ويصلان أخيرًا إلى استنتاجهما.

ينظر إليّ أحدهما ويقول:

«سيّد فريغا، علينا أن نخبرك بشيء.

هنا في إيطاليا، يمكننا أن نسمح لك بالمغادرة.

لكن ما إن تهبط في نيويورك، فهناك خطرٌ جدّي أن يعيدوك.

صورة جواز سفرك تُظهرك أثقلَ بعشرين كيلوغرامًا ممّا أنت عليه الآن.

إذن، أمامك خياران:

إمّا أن تذهب إلى مطعم اللوجبات السريعة وتكتسب عشرين كيلوغرامًا الليلة...

أو أن تعود إلى مدينتك وتتقدّم بطلب جواز سفر جديد بصورة جديدة.»

صمت.

ظننتُ حقًا أنّهما يمزحان.

انتظرتُ ظهور الكاميرا الخفية.

توقّعتُ أن يقفز أحدهم فجأة ليخبرني أنّي جزء من برنامج مقالب إيطالي.
لا شيء.

كانت هذه هي الحياة الحقيقية.

توجّهتُ إلى شبّاك UNITED AIRLINES.

جمّدتُ رحلتي الدولية.

حجزتُ رحلةً داخلية.

وطرتُ عائداً إلى البيت.

التكلفة الإجمالية للمزحة:

420 يورو.

لم أكن غاضباً.

لم أكن متوتّراً.

كنتُ أبتسم طوال الوقت، محاولاً أن أعرف ماذا سأقول لعائلتي حين يرونني
عائداً إلى البيت بعد خميس وأربعين دقيقة من سفري إلى أمريكا.

لحسن الحظ، كانت خمسٌ وأربعون دقيقة في الجوّ كافيةً لابتكار تفسيرٍ
مقنع.

جاءت زوجتي لتأخذني من المطار.

بدت قلقة.

قلتُ لها أن تهدأ.

كلّ ما في الأمر أنّني أحتاج إلى تحديث بعض التفاصيل في جواز سفري.
هذا كلّ شيء.

في صباح اليوم التالي، ساعدني صديقان على تسريع الأمور.

كان هو ضابط صفّ في الشرطة.
وكانت هي مفتّشة في الشرطة.
أخذاني إلى مديرية الشرطة لإنجاز معاملات الطوارئ.
كان كلّ شيء يسير بسلاسة:
المدفوعات، والوثائق، والبيانات الشخصية، والسجّلات الجنائية، والشهادات
القضائية، وصور جواز السفر.
كلّ شيء.
ثم نظرت إليّ المفتّشة الجالسة خلف المكتب وسألت:
«كيف خسرت عشرين كيلوغرامًا في بضعة أشهر فقط؟»
كان الجواب بسيطًا.
حين لا يكون لديك مال، فأول ما يتضرّر هو الطعام.
وحين يختفي الطعام، يتبعه الوزن عادةً.
أومأت برأسها.
كان ينبغي أن تكون تلك نهاية الحديث.
لكن هناك دائمًا لكن.
ولم أكن يومًا بارعًا بشكلٍ خاص في ألاّ أَدْخُلَ فيما لا يعني.
نظرت إليّ مرة أخرى.
«ماذا تقصد؟»
نظرتُ إليها وأجبتُ بمنتهى الجدّة:
«حسنًا...»
خسرتُ عشرين كيلوغرامًا.

لكن يبدو أنّه حين تختفي دهون الجسم، تصبح بعض المقاسات الاستراتيجية أوضح بكثير.

ولستُ متأكّدًا تمامًا ممّا إذا كان ذلك يدخل ضمن تحديثات البيانات البيومترية.»

صمت.

كفّت عن الكتابة.

نظرت إلّيّ.

نظرتُ إليها.

صديقي — الشرطي — خرج من الغرفة لأنّه رفض أن يضحك وهو يرتدي الزي الرسمي.

تكلّمت المفتّشة أخيرًا.

«سيّد فريغا... انتظر هنا من فضلك.»

اتّصلت بروما.

حتى اليوم، لا أدري كيف شرحت تلك المحادثة.

كلّ ما أعرفه أنّهم بعد خمس عشرة دقيقة سلّموني جواز سفري الجديد وطلبوا منّي بأدب أن أغادر دون أيّ تعليقات أخرى.

في ذلك اليوم تعلّمتُ شيئًا مهمًّا:

الحكومات تتعقّب أشياء كثيرة.

ولحسن الحظ، ليس كلّ شيء.

مرحبًا بك في أمريكا.

ناندو

هل أنت متطير؟

ردّ فعلي الأول هو الضحك — ضحكٌ طويل، جامع، ضروري. لأنّ حياةً كحياتي، أرغمها القدر على أن تُدَوّن في خمسةٍ وخمسين كتابًا، هي في ذاتها برهانٌ على أنّ المستحيل يختبئ داخل الوقائع، لا داخل الأوهام. مطلعٌ هذا الصباح ليس إلا وسيلةً لأجعل أحدهم يبتسم، ويفكّر قليلًا.

سجلٌ موجز للمستحيل

- **1965** – أُوُلِد في البيت. 5.8 كغ. مزرقّ اللون، أسود تقريبًا. لا أحد يبتسم. الجميع يريد فقط أن يعرف إن كنتُ سأنجو.
- **1970** – حادث دراجة. ذراع المكبح تنغرز مباشرةً في عيني. أنزف، أذهب إلى المستشفى، وبعد ثلاثين دقيقة أعود إلى البيت كأنّ شيئًا لم يكن.
- **1977** – أقضي اثني عشر شهرًا عند جدّي، في قرية ما زال يحكمها منطق الحرب العالمية الثانية — مع أنّ الحرب انتهت قبل 32 عامًا.
- **1981** – عملية جراحية كبرى تحت تخدير كامل. لا أحد يلاحظ أنّي مستيقظ. أتابع بصمتٍ كلّ خطوة من العملية. أسطوانة الأكسجين فارغة.
- **2001** – في سانتو دومينغو، يُعلَن موتي بعد 14 ساعة من الغيبوبة الكحولية. أنهض وأتناول الفطور.
- **2006** – سبعة أورام خبيثة. ثلاثون يومًا متوقّعة من العمر. واليوم نحن في عام 2026، وما زلتُ أضحك.
- **2015-2019** – خمس نوبات من الغيبوبة السريرية. يُعلَن أنّه لم تبقَ لي سوى ساعات. تصلني فاتورة جنازة بقيمة 3,500 يورو وقد كُتِب في سبب الدفع: «التخلّف عن الوفاة».
- **2020** – يصل كوفيد. نحن نحو خمسةٍ وعشرين شخصًا على الشاطئ. يشاهدونني أغادر إلى أمريكا الجنوبية، ويكادون يأسفون لأنني سأكون أوّل من يتعرّض للعدوى. الجميع يُصاب بالفيروس. أراقبهم من بعيد، مبتسمًا.

• 2022 – أصبح كاتبًا. اثنان وسبعون كتابًا في ثلاث سنوات. منشورةً باثنتي عشرة لغة. لستُ ناشرًا بعد، وكلّ الآخرين يلهثون وراء المال «ليجدوا قرّاء».

أدبي لا يُشتري بالخوارزمية — لا يصل إليه المرء إلا بإرادة القراءة.

• 2025 – أعيش في البرتغال ستة أشهر بمبلغ 70 يورو فقط في الشهر للطعام. بيتٌ فيه تسعة أشخاص وظروفٌ نظافةٍ لا تعليق عليها.

• 2026 – يطلب منّي جازٌ أن أرافقه إلى بيت أخته، على بُعد بضعة كيلومترات، لأنّه يخاف من قِطٍّ أسود يجلب له النحس كلّما رآه. نصل. القِطُّ الأسود ينظر إليّ من بعيد، لا يتكلّم، يلمس خصيتيه، ويهرب.

ناندو

الخاتمة السردية الأخيرة

ثمّة لحظة — تأتي دائمًا متأخرة — يكفّ فيها الرجل عن شرح حياته، ويقف ببساطة في داخلها.

لا بوصفه ناجيًا. ولا بوصفه شاهدًا. بل بوصفه الوحيد الذي يعرف الهندسة الكامنة وراء كلّ حدثٍ مستحيل.

لم أسبق الموت. لم أتغلّب على الأنظمة بدعائي. لم أفاوض الفوضى.

عبرتُ كلّ ذلك بالمعمار نفسه الذي شكّلني قبل أن أفهمه بزمي طويل.

بعضهم يسمّيه حظًا. وبعضهم يسمّيه غريزة. وبعضهم يسمّيه جنونًا.

أنا أسمّيه بنية.

والبنية لا تطلب التصفيق. ولا تحتاج إلى الغفران. ولا تنتظر الاعتراف.

إنها تغلق الباب. بهدوء. تمامًا. كشفرةٍ تعود إلى غمدها.

هذه نهاية القصة. لكنها ليست نهاية الرجل.

لأنّ ما هو مستحيل عند الآخرين ليس عندي سوى أمرٍ عادي.

ناندو

ملاحظة المؤلف

إن بلغت هذه النقطة، فقد فهمت بالفعل أمرًا جوهريًا: هذا الكتاب لم يُكتب قطّ ليسلّيك.

كان الغرض منه أن يحدّد لك موقعك.

كلّ صفحة، وكلّ جرح، وكلّ لحظة مستحيلة لم تُكتب لتُهرّج — بل لتكشف البنية الكامنة وراء حياة رفضت أن تنهار حين كان ينبغي لها أن تنهار.

لم أوّل هذا الكتاب لأشرح نفسي. كتبته لأترك أثرًا لمن يعيشون خارج الهوامش، لمن يعيدون البناء من لا شيء، لمن يعرفون أنّ الانضباط ليس فضيلة — بل آلية للبقاء.

إن بدت قصصي غير قابلة للتصديق، فلا بأس. أنا من أحبّها، لا أنت.

وإن بدت حادّة أكثر من اللازم، مباشرة أكثر من اللازم، نظيفة أكثر من اللازم، فتذكّر أنّ الشفرات لا تعتذر عن القطع.

هذه ليست نهاية رحلة. إنها نهاية فصلٍ من حياةٍ تواصل التقدّم حتى حين يتوقّع العالم أن تتوقّف.

شكرًا لأنك قرأت. لا لأنك صدّقت. القراءة كانت كافية.

— ناندو

الختام

«لا أنظر إلى الوراء. لا أضفي على الأشياء هالةً رومانسية. أحمل المعمار إلى الأمام. البنية لا تبهت — بل تتكاثر. لهذا تكون Gillette مستحيلة: لأنها تواصل التنفّس عبر كلّ ما أبنيه الآن.»

فرديناندو فريغا